الأدب النبوي

مزاياه وخصائصه

د. سيد أحمد الله بختياري[1]

المقدمة:

إنَّ الله ﷻ لما أوحى إلى خاتم أنبيائه وأفضل مرسليه محمد بن عبد الله – عليه الصلاة والسلام – ما أوحى من القرآن؛ جعل كلامَه أفصح وأبلغ حيث لا يماثله كلام على وجه الإطلاق، وعلى ذلك عجزت العرب عن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهذا سر إعجازه.

وكان النبي ﷺ مفسِّر للقرآن؛ لأنه هو الموحي إليه، فكل ما صدر عنه ﷺ من قول وفعل وتقرير وصفة كان تفسيراً للقرآن وبياناً للفرقان، وكان خلقه القرآن لما كان حديثه وحياً غير متلو. ومن هنا نعرف أن الحديث النبوي أكبر ثروة أدبية وعلمية، وهو يشتمل على جميع أطراف البلاغة من المعاني والبيان والبديع.

وانطلاقاً من هذه المكانة السامية لأدب الحديث النبوي، ونظراً إلى أهمية الموضوع؛ تراءى لي أن أعرض في هذا البحث بعض الأضواء على "أدب الحديث النبوي".

المبحث الأول: الخصائص الأدبية للأحاديث النبوية:

إنَّ أدب الحديث النبوي منَزَّه عن اللغو، وبعيد عن الباطل، كما أنه يبعد كذلك عن العبث، فحيث لا يجد القارئ في ذلك الأدب استهزاءاً لأحد من الناس؛ كما لا يجد فيه سخرية لأحد؛ بل يجد المزاح الحقيقي – أحياناً – في أدب الحديث النبوي ﷺ وهو الأدب ليس فيه كذب، ولا خداع، وإنما كان أدب الحديث النبوي في توضيح القرآن،

[1] المحاضر في قسم الحديث النبوي في الجامعة الإسلامية بحيدرآباد (الهند).

وتفسير كلماته، أو في تقرير أحكامه، أو فيه تفصيل لإجماله، أو تقييد لإطلاقه، أو فيه حكمة ينتفع بها الناس في دينهم، وفي دنياهم بعبارة هي في الفصاحة والبلاغة والإيجاز والبيان في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم؛ لأن أدب الحديث النبوي يشير إلى الخير، ويرشد إلى الصلاح، ويدعو إلى البر، وينادي إلى الفلاح.

وينطق أدب الحديث النبوي الأحوال البرزخية؛ كأننا نراها، «وإذا أقبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكَر، والآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبد الله ورسوله؛ أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم إنك تقول هذا؛ ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعًا في سبعين، إلى آخره ... »[1].

ويقدِّم أدب الحديث النبوي مناظر الآخرة، كأننا نحن فيها، ونسير فيها، ونمشي إليها: «ما منكم من أحد إلا وسيكلّمه الله يوم القيامة، ليس بين الله وبينه تُرجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدّامه ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار فمن استطاع منكم أن يتقي النار! ولو بشق تمرة!!» [2]، وكذا في حديث آخر: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر من عن أيمن منه فلا يرى إلا شيئاً قدمه ثم ينظر من عن أيسر منه فلا يرى إلا شيئاً قدمه ثم ينظر أمامه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرة فليفعل»[3].

ويشجّع أدب الحديث النبوي إلى فكرة الآخرة في أسلوب الترغيب والترهيب؛ كما يقدِّم هذا الأدب مشاهد القيامة بالإنذار والتبشير اقتداءً بأسلوب القرآن الكريم.

---

[1] أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، برقم: ٩٩١.

[2] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب عذب، برقم: ٦٠٥٨، و مسلم، كتاب الزكاة، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار، برقم: ١٦٨٨، وابن ماجة في السنن، المقدمة، فيما أنكرت الجهمية، برقم: ١٨١، ١٨٣٣.

[3] أخرجه ابن ماجة في السنن، المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، برقم: ١٨١.

ويحرِّك أدب الحديث النبوي في أسلوب الترغيب إلى عبادة الله تعالى وحده كما في حديث: «من صلّى بين المغرب والعشاء عشرين ركعة بنى الله له بيتا في الجنة»[1].

ويذكر أدب الحديث النبوي نعماء الجنة كأننا نأكلها، ونتمتع بها، ونحصل التلذذ بها؛ كما يبين أدب الشريف الحلال والحرام في المأكولات والمشروبات.

ويفرِّق أدب الحديث الحق والباطل في العقائد والأفكار – هذا هو الدين –، ويميِّز الصواب والخطأ في العمل والسلوك – هذا هو الإسلام –، ويحدِّد الجواز في أمورنا، ويقرّر الحدود لعدم الجواز في شئوننا، ويوضِّح أدبه العلاقات بين الرجل وزوجته، بينه وبين أخيه – مسلمًا أو غير مسلم – وبينه وبين كبيره، بينه وبين صغيره.

١– التنوع والشمول:

ومن خصائص أدب الحديث النبوي الشريف التنوع والشمول لجميع أفراد البشر؛ فمثلاً: التاجر يأخذ تعليماته في مجال التجارة في هذا الأدب، كما في الحديث: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»[2].

والزارع يحصل إرشاداته في مجال الزراعة في أدب الحديث النبوي، كأحكام العشر، والخراج.

والمجاهد يجد توجيهاته في أدبه في ميدان جهاده وقت القتال؛ بأن لا يقتل طفلاً، ولا طفلة، ولا فتاة، ولا نساءً، ولا عجوزًا، ولا شيخًا، ولا يهدم الكنائس، ولا المعابد، ولا الصوامع، والقاعد من الجهاد يطلب من أدبه آداب القعود لنفسه؛ بأنه يساعد مساعدة مالية على عائلة المجاهدين وعلى أقاربهم الذين ساعدوا على المجاهدين مساعدات مختلفة – ليكون القاعد مجاهدًا، بإنفاق ماله، هذا هو الجهاد بالمال – ومن أهل المقاومة إذا كانوا يريدون الصلح ينالون الطريق إلى الصلح في

---

[1] أخرجه ابن ماجة في السنن، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء في الصلاة بين المغرب والعشاء، برقم: ١٣٦٣.

[2] أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي ﷺ إياهم، برقم: ١١٣٠.

أدب الحديث النبوي.

والصنّاعون، وأصحاب الحِرف يجدون معالم الطريق في أدبه الكريم.

فكان أدبه الرفيع لا يترك أحدا من أفراد البشر إلاَّ ولهم هدايات وإرشادات في مجالاتهم المختلفة في أدبه، هذا هو التنوع والشمول.

وكذلك من خصائص أدب الحديث النبوي أنه يحدِّد دائرة الطاعة للأبوين الكريمين – تكون الطاعة في المعروف – فقط – وإطار الإطاعة للكبار والسادات؛ فلا تكون الإطاعة في معصية «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»[1]، وبه نعرف سبل السلام، وبه نفهم العلاقات بين الأسرة وأفرادها، وبه نحصل الهداية، وبه نتصور الآخرة، وبه ينال المؤمن الفوز في الآخرة على عمله بعد علمه، والتمسُّك به وهي كلها في كلمات مختصرة، وفي عبارات موجزة، وفي جمل قصيرة «أوتيت جوامع الكلم»[2]، هذه هي الخصائص الأدبية في الأدب النبوي.

فتوجد في أدب الحديث النبوي دلالات ومنارات لحياة المؤمن، ولجميع شئونها، سواء كانت حياته الخاصة، من أمثال: السفر، والحضر، والجلوس، والقعود، والأكل، والشرب، والنوم، واليقظة، وغيرها....؛ كالأدعية المأثورة المنقولة المتواترة في الأمة المسلمة التي تظهر بها عبودية لله تعالى، وفيها إظهار للعبودية التي تكون مطلوبة من العباد، وفيها يظهر التواضع والمسكنة في جميع شئون العبد؛ هذا هو المطلوب من تخليق الإنسان ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وسواء كانت حياته العائلية، أو كانت حياته في بيته مع أفراد الأسرة، وغيرهم من الضيوف، والزوَّار، أو كانت حياته الاجتماعية التي فيها العلاقات الخارجية مع الأقرباء، والأصدقاء، والأحبة، وغيرهم من الجوار، أو كانت علاقاته السياسية المحلية أو الدولية، أو الدبلوماسية، أو

---

[1] أخرجه أحمد بن حنبل في المسند، برقم: ١٠٩٥، ٣٨٨٩.

[2] شرح السنة: للبغوي: ٣٨٨/٦.

غيرها التي يتعلَّق بها المؤمن، وما من علاقة أو أية حالة طارئة عليه في حياته إلا ولها دلالة واضحة في أدب الحديث الشريف النبوي، وأدبه يكون للمؤمن مرشداً، فيسترشد من أدبه كل حين من الزمان؛ كما توجد في أدب الحديث النبوي هدايات وإرشادات لحياة المشرك، ولغيره، تحكم عليها دولة الإسلام ليكون المشرك على وعده، والمعاهد على عهده، والمسالم على معاهدة سلمه؛ فتكون الإنسانية محفوظة من جميع الشرور والفتن — كالفتن الحاضرة – لكي تعيش الإنسانية بالأمن، والحفاظ، والراحة، والرخاء، هذا هو التناول والشمول في أدب الحديث النبوي لحياة المؤمن وشئونه، ولحياة المشرك وبعض شئونها.

٢– أدب الحديث النبوي محيط بالإنسانية:

ومن خصائص أدب الحديث النبوي: التفصيل، والترتيب، والتنظيم، والتقسيم، والتوزيع، والتأكيد، والتبيين، والوصية، والتحريض، والحثّ، والتحديد، والمنع، والعطاء، والأمر، والنهي، وغيرها، فقد فصَّل أدبه حقوق الذمِّيِّين، وحقوق المعاهدين، وحقوق المسالمين، ونظَّم أدب الحديث النبوي حقوق الأرامل، وحقوق المطلقات وقسمها على من يستحقها، وأكد حقوق الواجبات! ووزَّعها على من عليه الوجوب، وبيَّن أدب الحديث النبوي حقوق الزوجات: على أزواجهم وحقوق الأزواج على زوجاتهم، وأوصى حقوق الجار: وحثَّ حقوق المستحبات؛ كحقوق الأيتام، والفقراء، والمساكين، والمسافرين، وعدَّها من مصاريف الزكاة وحرَّضها على من عندهم استطاعة مالية، وحدَّد أدب الحديث النبوي المحاربة مع المسالمين؛ وغيرهم، إذا بدءوا المحاربة مع المسلمين، وأعطى أدبه كل ذي حق حقه؛ فكان أدب الحديث النبوي ديناً. وأمر هذا الأدبُ بإكرام الضيف وبإطعام الطعام؛ فعد الإكرام من علامات الإيمان بالله واليوم الآخر «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[1] وقدَّر أدبه مكانة الإنسانية،

[1] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، برقم:٥٥٥٩،

واحترام دمها؛ حتى ذراري المشركين في ميدان الجهاد؛ والنساء وقت القتال: وحكم أدبه دم الإنسان محذورًا في كل وقت وحين؛ إلا إذا كان دمه مباحا بسبب ارتكابه الجرائم المحدَّدة!! فقط!

ولتكون الأرض طاهرة من إراقة دم الإنسان؛ فقد عظَّم أدبُ الحديث النبوي دمَه، وعلَّم إكرامه، ومنع أدبه قلع الأشجار، وهدم البيوت! ولو كانت للأعداء! وهم في المقاتلة مع المسلمين في ميدان الحرب!! هذا هو الإسلام الحقيقي، وهل له علاقة بالإرهاب؟!! وهل في ذاك التعليم تعاليم الإرهابية؟! كما نهى أدب الحديث النبوي كثيراً من الأشياء في المعاملات مثل: «لا ضرر ولا ضرار»[1] وفي العبادات «لا يقبل الله صلاة إلا بطهور»[2]، والصدقات «ولا صدقة من غلول»[3] والعقوبات «أتشفع في حدٍّ من حدود الله»[4]، وإذا وقعت فيها شبهة يسقط بها الحدُّ، وأمر تجديد الإيمان «جدِّدوا إيمانكم بقول لا إله إلا الله»[5].

ويجيز أدب الحديث النبوي لجميع المتطلبات اللازمة في حياة الإنسان؛ لأن الرسول ﷺ هو الرسول الآخر، ولن يأتي بعده رسول – أبداً – وهو نبيٌّ لا نبيَّ بعده، وهو آخر في سلسلة الأنبياء والمرسلين – صلوات الله عليه وعليهم، وسلام الله عليه وعليهم – فلهذا كلامه أي: أدب الحديث النبوي كفيل للإنسانية كلها، وشئون الإنسانية كلها، وشخصيته العظيمة الكبرى كفيلة لها، هذه هي الخصائص الأدبية، هذا

---

[1] أخرجه ابن ماجة في السنن، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، برقم: ٢٣٣٢، وأحمد بن حنبل في المسند، برقم: ٢٨٦٧.

[2] أخرجه ابن ماجة في السنن، كتاب الطهارة وسننها، باب لا يقبل الله صلاة بغير طهور، برقم: ٢٦٧.

[3] المصدر السابق.

[4] أخرجه أبو داؤد في السنن، كتاب الحدود، باب في الحد يشفع فيه، برقم: ٣٨٠٢، والترمذي في الجامع، كتاب الحدود، باب ما جاء في كراهية أن يشفع في الحدود، برقم: ١٣٥٠، وابن ماجة في السنن، كتاب الحدود، باب الشفاعة في الحدود، برقم: ٢٥٣٧.

[5] أخرجه أحمد بن حنبل في المسند، برقم: ٨٦٩٥.

هو أدب الحديث النبوي.

المبحث الثاني: نماذج الأدب العالي في أدب الحديث النبوي:

أولاً: نماذج من أدب الحديث النبوي في الأدعية المأثورة:

١) اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك[١].

٢) أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً، غفر له ذنبه[٢].

٣) بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم[٣].

٤) اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع غلبة الدَّين وغلبة الرجال[٤].

٥) اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً [٥].

٦) اللهم أجرني من النار[٦].

٧) اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني، ودنياي، وأهلي، ومالي، اللهم استر عورتي – وقال عثمان عوراتي – وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين

---

[١] أخرجه أبو داؤد في السنن، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، برقم: ٤٤٠٧.

[٢] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه...، برقم: ٥٧٩.

[٣] أخرجه أبو داؤد في السنن، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، برقم: ٤٤٢٥.

[٤] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب من غزا بصبي للخدمة، برقم: ٢٦٧٩.

[٥] أخرجه ابن ماجة في السنن، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما يقال بعد التسليم، برقم: ٩١٥.

[٦] أخرجه أبو داؤد في السنن، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، برقم: ٤٤١٧.

يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي[1].

٨) اللهم عافني في بدني، اللهم عافني في سمعي، اللهم عافني في بصري، لا إله إلا أنت..... اللهم إني أعوذ بك من الكفر، والفقر، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلا أنت..... اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت[2].

٩) اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، والملائكة يشهدون أنك لا إله إلا أنت، فإنا نعوذ بك من شر أنفسنا، ومن شر الشيطان الرجيم، وشركه وأن نقترف سوءا على أنفسنا، أو نجره إلى مسلم[3].

١٠)اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، وأعوذ بك من القسوة، والغفلة، والعيلة، والذلة، والمسكنة، وأعوذ بك من الفسوق، والشقاق، والنفاق، والسمعة، والرياء، وأعوذ بك من الصمم، والبكم، والجنون، والبرص، والجذام، وسيء الأسقام[4].

١١)اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة[5].

---

[1] أخرجه أبو داؤد في السنن، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، برقم: ٤٤١٢.

[2] أخرجه أبو داؤد في السنن، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، برقم: ٤٤٢٦.

[3] أخرجه أبو داؤد في السنن، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، برقم: ٤٤٢٠.

[4] أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، برقم: ٣١٦.

[5] أخرجه أبو داؤد، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، برقم: ٤٤٢٢.

ثانياً: نماذج من أدب الحديث النبوي في الخطب:

خطبة رسول الله ﷺ في حجة الوداع:

الحمد لله! نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدى الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله! بتقوى الله!! وأحثكم على طاعته، واستفتح بالذي هو خير!

أما بعد! أيها الناس! اسمعوا مني أبين لكم؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا! في موقفي هذا!

أيها الناس! إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقو ربكم؛ كحرمة يومكم هذا! في شهركم هذا!

ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها! وأن ربا الجاهلية موضوع! وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب! وإن دماء الجاهلية موضوعة! وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية!! والعمد قود!! وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير!! فمن زاد فهو من أهل الجاهلية!!

أيها الناس! إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه!! ولكنه؛ قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك، مما تحقرون من أعمالكم.....!!

أيها الناس! إن لنسائكم عليكم حقا! ولكم عليهن حق! ألا يوطئنَّ فرشكم غيركم! ولا يدخلن أحد تكرهونه بيوتكم! إلا بإذنكم!! ولا يأتين بفاحشة! فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن! أو تهجروهن في المضاجع!! وتضربوهن ضربًا غير مبرح! فإن انتهين، وأطعنكم! فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف....!! فاتقوا الله في النساء! واستوصوا بهن خيرًا!! ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس! إنما المؤمنون إخوة!! فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه!! ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض! فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي!! كتاب الله!! وسنتي!! ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد!

أيها الناس! إن ربكم واحد! وإن أباكم واحد! كلكم من آدم! وآدم من تراب!! أكرمكم عند الله أتقاكم!! ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى!! ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! فليبلغ الشاهد منكم الغائب...!! والسلام عليكم ورحمة الله[1].

ليتني كنت أقدِّم المقارنة بين خطبته هذه، وبين الدستور العالمي الموجود في الأمم المتحدة، فتظهر الفوائد الكثيرة في الأولى، وتظهر النقائص في الثانية!!! وأما المسائل التي وجهت إليها الأمم المتحدة، فقد حلّها الإسلام قبل أربعة عشر قرنًا، وربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري حلاًّ حاسمًا، وحلاًّ جيدًا لها، كتحرير المرأة، وحقوق الإنسانية! وغيرها!!

المكالمة الوعظية في خطبة المباركة الثانية التي ألقاها في عاشر من ذي الحجة – يوم النحر – حين ارتفع الضحى، وهو على بغلة شهباء، والناس بين قائم وقاعد، وأعاد في خطبته هذه بعض ما ألقاه أمس، وهي خطبة عظيمة أدبية بليغة! هذا هو أدب الحديث النبوي.

أما المكالمة فهي جزء من المسرحية، وجزء من التمثيلية؛ كما أنها من الأجزاء الأساسية في الرواية، وغيرها من الفنون الأدبية الأخرى – الحديثة – في مجال العمل الأدبي، وبالمكالمة يستطيع القارئ والسامع، والناظر أن يدرك الحقائق الأساسية عن طريق الأسئلة والأجوبة – في لغة الحوار – التي توجد في النص الأدبي، وبها يفهم

[1] القول المبين في سيرة سيد المرسلين: لمحمد طيب النجار: ٣٨٧/١.

القارئ، والسامع، والرائي المعاني الشعورية من القِيَمِ التعبيرية، ويتلذذ من الأسئلة والأجوبة، اللتان توجدان في المكالمة، وبها تقرَّر المعاني في قلوب الناس ما دام النص باقيًا، وبها تتم الأغراض لصاحب النص، وبها تتم أهدافه التي يريد إفهامها، فبعض الأغراض الأساسية لا تتم إلا بها.

انظروا كيف كانت المكالمة في كلام الرسول المعصوم؟ وكيف كانت الأهمية تظهر بواسطتها لكلامه – عليه السلام –؟ وكيف تؤكد المعاني والأحكام من كلامه – عليه السلام –؟ في قلوب الناس – قلوب السامعين – وكيف تقشعر منها الجلود؟ وكيف نتصور بها الآخرة؟ وكيف تكون بها العواطف متوجهةً إلى المكالمة؟ انظروا كيف يسمع الناس إلى المكالمات؟ وكيف ينظرون إلى ألهيئات الطارئة على قائلها من سكوت وهيبة؟! فيكون الأثر من تلك الكلمات الأدبية المكالمية – وهي من أدب الحديث النبوي – أثراً كبيراً؟ فكيف تتحرك بها الأحاسيس؟ في نفوس السامعين والقارئين والناظرين.

مع أن المكالمات الأدبية توجد في الأدب الحديث كثيرة جدًّا؛ كما توجد في اللغات العالمية الحية – بكثرة –، هذه المكالمة الشهيرة في الأدب العربي في القديم والحديث، لا تدانيها المكالمات الأخرى – أبداً – مع أن أدب الحديث ﷺ ليس لأجل المكالمات!

قال: أي شهر هذا؟

قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسم!!

قال: أليس ذا الحجة؟

قلنا: بلى!

قال: أي بلد هذا؟

قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسم!!

قال: أليست البلدة؟

قلنا: بلى!

قال: أي يوم هذا؟

قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسم!!

قال: أيها الناس! إن الله قسَّم لكل وارث نصيبه في الميراث! فلا تجوز لوارث وصية! ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث! من ادعى إلى غير أبيه! أو تولى غير مواليه! فعليه لعنة الله! والملائكة! والناس أجمعين!! الولد للفراش، وللعاهر الحجر!!

قال: أيها الناس! إن النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عامًا و يحرمونه عامًا! إلى أن قال: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض! وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا في كتاب الله!... إلى أن قال: منها أربعة حرم! ثلاثة متواليات! وواحد فرد!!

ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان[1].

وهذه العبارات الأدبية الخالصة هي نماذج من أدب الحديث النبوي ﷺ.

لا داعي لنا أن نقارن بين تلك المكالمة النبوية وبين المكالمات العربية، والإنجليزية في المسرحيات المشهورة.

ثالثاً: نماذج من قصص أدب الحديث النبوي:

مما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف، وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويسر، وتسترسل مع سياقه المشاعر، فلا تمل ولا تكد، ويرتاد العقل عناصرها، فيجني من حقولها الأزاهر والثمار.

وهذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغي للمربين أن يفيدوا منها في مجالات التعليم،

[1] أخرجها مسلم في الصحيح في باب حجة النبي ﷺ، وأبو داؤد في السنن، في باب أي وقت يخطب يوم النحر؟.

لاسيما التهذيب الديني الذي هو لب التعليم، وقوام التوجيه فيه[1].

ولما كان الرسول ﷺ أكبر المربين وأعظم والموجهين؛ استعمل هذا الأسلوب الأدبي – القصص – في أحاديثه، ومن ثم نرى كثيراً من الأحاديث النبوية جاءت بالأسلوب القصصي، ونورد بعض الأمثلة من الأحاديث فيما يلي:

١) بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر، فمالوا إلى غار في الجبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل، فأطبقت عليهم.

فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها لله صالحة، فادعوا الله بها لعله يفرجها.

فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، ولى صبية صغار كنت أرعى عليهم، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدى، وإنه ناء بي الشجر فما أتيت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء.

وقال الثاني: اللهم إنه كانت لي ابنة عم، أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء، فطلبت إليها نفسها، فأبت حتى آتيها بمائة دينار، فسعيت حتى جمعت مائة دينار، فلقيتها بها، فلما قعدت بين رجليها قالت يا عبد الله اتق الله، ولا تفتح الخاتم. فقمت عنها، اللهم فإن كنت تعلم أنى قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج لنا منها ففرج لهم فرجة.

وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز فلما قضى عمله قال

---

[1] انظر: "مباحث في علوم القرآن"، لمناع القطان، ص: ٣١٠.

أعطني حقي. فعرضت عليه حقه، فتركه ورغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا وراعيها، فجاءني، فقال اتق الله ولا تظلمني، وأعطني حقي. فقلت اذهب إلى ذلك البقر وراعيها. فقال: اتق الله ولا تهزأ بي. فقلت إني لا أهزأ بك، فخذ ذلك البقر وراعيها. فأخذه فانطلق بها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج ما بقي، ففرج الله عنهم[1].

٢) أن رجلاً من أهل البادية كان اسمه زاهر بن حرام، وكان يهدي للنبي ﷺالهدية من البادية، فيجهزه رسول الله ﷺإذا أراد أن يخرج.

فقال النبي ﷺ: إن زاهرا باديتنا، ونحن حاضروه.

قال: وكان النبي ﷺ يحبه، وكان دميما، فأتاه النبي ﷺيوماً، وهو يبيع متاعـــه، فاحتضنه من خلفه، وهو لا يبصره،

فقال: أرسلني، من هذا؟ فالتفت، فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألزق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه، وجعل النبي ﷺ.

يقول: من يشتري العبد؟

فقال: يا رسول الله! إذا والله تجدني كاسداً.

فقال النبي ﷺ: «لكن عند الله لست بكاسد»[2].

٣) أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: كيف تصوم؟ فغضب رسول الله ﷺ من قوله، فلما رأى عمر غضبه.

قال: رضينا بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيًّا، نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله، فجعل عمر ﷺ يردد هذا الكلام حتى سكن غضبه.

فقال عمر: يا رسول الله! كيف بمن يصوم الدهر كله؟

---

[1] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأدب، باب إجابة الدعوة من بر والديه، برقم: ٥٩٧٤.

[2] شرح السنة، كتاب الرؤيا، باب تأويل الثياب والفرش: ٣٧٧/٦.

قال: لا صام ولا أفطر – أو قال لم يصم و لم يفطر –

قال: كيف من يصوم يومين ويفطر يوماً؟

قال: ويطيق ذلك أحد.

قال: كيف من يصوم يوماً ويفطر يوماً؟

قال: ذلك صوم داود – عليه السلام –

قال: كيف من يصوم يوماً ويفطر يومين؟

قال: وددت أني طوقت ذلك.

ثم قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كل شهرٍ ورمضان إلى رمضان، فهذا صيام الدهر كله، صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده، وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله»[1].

رابعاً: نماذج الأمثال في أدب الحديث النبوي:

الأمثال جمع مثل، والمثل في الأدب قول محكي سائر يقصد به تشبيه حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله، أي يشبه مضر به بمورده، مثل: «خذوا الحكمة ممن سمعتموها فانه قد يقول الحكمة غير الحكيم وتكون الرمية من غير رام»[2] أي رب مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطئ، وقيل: إن المثل هو إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة وجمالاً، والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً[3].

وضرب الأمثال في البيان النبوي لم يأت لغاية فنية بحتة كغاية الأدباء في تزيين الكلام وتحسينه، وإنما جاء لهدف اسمي، وهو إبراز المعاني في صورة مجسمة

---

[1] انظر: "الجمع بين الصحيحين البخاري" لحميدي:٢٨٧/١، "الأصول في أحاديث الرسول" لابن الأثير، برقم: ٤٤٨١.

[2] كنْز العمال، برقم: ٢٩٥٣٨.

[3] انظر: مباحث في علوم القرآن، ص: ٢٨٢ – ٢٨٣.

لتوضيح الغامض، وتقريب البعيد، وإظهار المعقول في صورة المحسوس؛ كما أن ضرب الأمثال أسلوب من أساليب التربية، بحث النفوس على فعل الخير، وبحضها على البر، وبدفعها إلى الفضيلة، وبمنعها عن المعصية والإثم، وهو في نفس الوقت يربي العقل على التفكير الصحيح والقياس المنطقي السليم، لأجل ذلك ضرب النبي ﷺ طائفة من الأمثال في قضايا مختلفة وفي مواطن متعددة، وفي مناسبات عديدة.

نماذج من تشبيهات من الحديث النبوي:

١- مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها حلو ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر[١].

٢- مثل المجاهد في سبيل الله – والله أعلم بمن يجاهد في سبيله – كمثل الصائم القائم وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالما مع أجر أو غنيمة[٢].

٣- مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى[٣].

---

[١] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، برقم: ٥٠٠٧، وكتاب التوحيد، برقم: ٧٠٠٥، و مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، برقم: ١٣٢٨.

[٢] أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله...، برقم: ٢٥٧٩ ومسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الشهادة في سبيل الله تعالى، برقم: ٣٤٩٠.

[٣] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، برقم: ٤٦٨٥.

خامساً: نماذج من الحِكَم في أدب الحديث النبوي:

الحكم جمع حكمة، والحكمة قول رائع موافق للحق سالم من الحشو، وهي ثمرة الحنكة ونتيجة الخبرة، وخلاصة التجربة، كقولهم: الخطأ زاد العجول[1].

ومن ينظر في الأحاديث النبوية، وما نص عليه العلماء بأنه روي بلفظه يعرف أنه – عليه السلام – أوتي جوامع الكلم وحقا ما يقوله الجاحظ من أنه لم يتكلم إلا بكلام قد حفّ بالعصمة وشُيد بالتأييد ويُسر بالتوفيق[2].

ومن هنا نعرف أن الحديث النبوي جاء كثيرًا بأسلوب الحكمة، ونورد على ذلك بعض الأمثلة من الأحاديث النبوية الأدبية فيما يلي:

نماذج من الحكم النبوية:

- قوله ﷺ: «لا تزال أمتي على الفطرة ما لم يجدوا الأمانة مغنما والزكاة مغرماً»[3].
- قوله ﷺ: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»[4].
- قوله ﷺ: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ»[5].
- قوله ﷺ: «حجبت النار بالشهوات وحجبت الجنة بالمكاره»[6].

---

[1] تاريخ الأدب العربي، أحمد حسن الزيات، ص: ١٨.

[2] انظر: "البيان والتبيين" للجاحظ: ١٧/٢.

[3] جامع الأحاديث: للسيوطي: ٥٦/١٨، كنْز العمال، برقم: ٥٥٠٤.

[4] أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، باب منه، برقم: ٢٣٨٣، وابن ماجة في السنن، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، برقم: ٤٢٥٠.

[5] أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب الزهد، باب الصحة والفراغ نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، برقم: ٢٢٢٦، وابن ماجة في السنن، كتاب الزهد، باب الحكمة، برقم: ٤١٦٠.

[6] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الرقاق، باب حجبت النار بالشهوات، برقم: ٦٠٠٩، ومسلم في الصحيح، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب، برقم: ٥٠٤٩.

سادساً: بعض نماذج لصور بديعية في أدب الحديث النبوي وأمثلتها:

ينقسم علم البديع إلى قسمين: المحسنات اللفظية، والمحسنات المعنوية، وتشتمل الأحاديث النبوية على كل من هذين النوعين البلاغيين، إلا أنني أكتفي بذكر بعض تلك المحسنات مع إيراد الأمثلة بالأحاديث النبوية.

فمن المحسنات اللفظية:

أ الجناس:

هو أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفا في المعنى، وهو نوعان:

١- تام: وهو ما اتفق فيه اللفظان في أمور أربعة هي: نوع الحروف وشكلها، وعددها، وترتيبها.

٢- غير تام: وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور المتقدمة[١].

مثاله: قوله ﷺ: «الخيل معقود بنواصيها الخير الأجر...»[٢].

ب السجع:

هو توافق الفاصلتين من النثر على حرف واحد [٣]، مثاله: قوله ﷺ: «اللهم أعط منفقا خلفًا، وأعط ممسكا تلفًا» [٤]، فالحديث النبوي مركب من فقرتين متحدتين في الحرف الأخير.

ومن المحسنات المعنوية:

جـــ الطباق:

---

[١] البلاغة والواضحة، ص ٢٦٥.

[٢] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإمارة، باب الخيل في نواصيحا الخير الأجر إلى يوم القيامة، برقم: ٣٤٧٩.

[٣] علم البديع، للدكتور عبد العزيز عتيق، ص ٢٠٦.

[٤] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: فأما من أعطي واتقى وصدق بالحسنى...، بالحسنى...، برقم: ١٣٤١، ومسلم في الصحيح، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، برقم: ١٦٧٨.

هو الجمع بين الشيء وضده في الكلام، وهو نوعان:

(١) طباق الإيجاب: هو ما لم يختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً.

(٢) طباق السلب: هو ما اختلف فيه الضدان إيجاباً وسلباً[١].

مثاله: قوله ﷺ: «خير المال عينٌ ساهرةٌ لعين نائمة».

هذا الحديث النبوي يشتمل على الكلمتين: "ساهرة" و "نائمة" وهما ضدان، و لم يختلفا إيجابا وسلبا، فيسمى طباق الإيجاب.

د المقابلة:

المقابلة أن يؤتي بمعنيين أو أكثر، ثم يؤتي بما يقابل ذلك على الترتيب[٢]، ومثاله: قال ﷺ للأنصار ﷺ: «إنكم ما علمت تكثرون عند الفزع، وتقلُّون عند الطمع»[٣].

فبين النبي ﷺ صفتين من صفات الأنصار ﷺ في صدر الكلام وهما الكثرة والفزع، ثم قابل ذلك في آخر الكلام بالقلة والطمع على الترتيب.

هـ تأكيد المدح بما يشبه الذم:

وهو ضربان:

١) أن يستثنى من صفة ذم منفية صفة مدح.

٢) أن يثبت لشيء صفة مدح، ويؤتي بعدها بأداة استثناء تليها؟ صفة مدح أخرى[٤].

مثاله من النوع الثاني: قوله ﷺ: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش»[٥].

فالنبي ﷺ وصف نفسه بصفة ممدوحة وهي أنه أفصح العرب ولكنه أتى

---

[١] البلاغة الواضحة، ص: ٢٨١.

[٢] البلاغة الواضحة، ص: ٢٨٥.

[٣] جامع الأحاديث للسيوطي: ٢٠٥/٣٣، كنز العمال، برقم: ٣٧٩٥١.

[٤] البلاغة الواضحة، ص: ٢٩٢، ٢٩٣.

[٥] كشف الخفاء: للعجلوني: ٢٠١/١.

بعدها بأداة استثناء ثم أتى بصفة مدح أخرى، وهي أنه من قريش، فكان ذلك توكيدا للمدح الأول.

المبحث الثالث: الخصائص الفنية والفنون البلاغية في أدب الحديث النبوي:

أولاً: الخصائص الفنية في أدب الحديث النبوي:

أما الخصائص الفنية في أدب الحديث النبوي ﷺ فهي كثيرة جدًّا، ولا يمكن استقصاؤها، لذا أكتفي على الإشارة إليها – فقط – فكثير من علماء البلاغة كانوا يستخرجون المسائل البلاغية من الأحاديث النبوية – وهي الخصائص الفنية –، وهم كلهم أثبتوا – الحقيقة – أن الرسول الكريم – عليه سلام الله – كان خطيبًا بارعًا، وكان بليغًا كاملاً، وكان أدب الحديث النبوي قد وصل إلى القمّة الأدبية، وكانت بلاغته قد وصلت إلى ذروة سنامها، وكلامه بليغ، وأدبه عظيم أي: أدب الحديث النبوي وكله من الدين، وفيه خصائص فنية.

ومن الخصائص الفنية خطابات النبي العامة، وخطبه الخاصة عند الوفود، وإرشاداته العامة وقت الضرورة، ومواعظه الخاصة للأفراد عند الحاجة، والنصيحة الشخصية إثر حاجتها، والدعوة إلى الخير إذا مسّت الحاجة إليها، فكانت تلك المواضع – كلها – تشتمل على البلاغة في القِمة؛ حيث توجد فيها رعاية تامّة لمقتضى الحال، هذا هو أدب الحديث النبوي ما من كلام صدر من فمه المبارك، وما من كلمة خرجت من فيه الشريف – عليه السلام – إلا وفيهما مناسبة تامّة للحاضرين، والزائرين، والوافدين، والمقيمين، والمعذورين المستقلين منهم، وأصحاب الأعذار المؤقتة فيهم، وكان مشفقاً عليهم، وهو بالمؤمنين – المعذورين، وغيرهم – رءوف رحيم؛ فكان يفتَّشُ أحوالهم دائمًا، وكان يجلس معهم، ويأكل معهم، ويشرب معهم، وكان يعلمهم الأدب في الأكل والشرب وغيرهما، وقد بعثه الله تعالى لهذه الأغراض التربوية،

ويخالطهم، وكان يحبهم جميعًا، فترك لنا أسوةً مؤدَّبة، ولنا فيها براميج لحياتنا، وغيرهم من أصحاب الرحلة العاجلة على ركب، وكان ينصح لهم – للجميع – حسبَ أحوالهم، وحسبِ ظروفهم، وكان يكلّم كلامًا مطابقًا لحالهم، وكان يحدّث حديثا مطابقًا لحالة السائل الذي حضر في مجلسه المبارك لأجل سؤاله، فتوجد في جوابه مناسبة تامّة لمقتضي الحال، ففي مثل هذه المواقع المختلفة مع زائره، والوافد إليه، والوارد عليه، والمعذور لديه، والسائل له في حفلته الوعظية عند ختامها، تظهر الفنون البلاغية في كلامه معهم، وعند الحوار بهم، ووقت محادثتهم، وحين المخاطبة منهم، والتشرّف بالمكالمة معهم، هذه هي البلاغة توجد في أدبه العالي، وهي: تأتي بعد الفصاحة، فيكون الكلام فصيحًا أولاً، ثم يكون بليغًا ثانيا، فلم نجد في كلامه مخالفة للقياس اللغوي، وكانت البلاغة في كلامه موجودة في القمة، وكانت المطابقة فيه تمامًا لمقتضي الحال، هذا أدب الحديث النبوي، فكانت الأجوبة كلها تطابق لظروفهم الخاصة والعامة، مع رعاية الإطناب للأسئلة التي وجَّهت إليه من العامة، والمساواة في الكلام عند الحوار، والإيجاز لدي الحاجة؛ هذه هي البلاغة النبوية، هذا هو الأدب في حديث النبوي.

وأما الإطناب في الكلام فهو: أن تكون الألفاظ كثيرة، ومعناها قليلة؛ لكي يفهم السامع تفصيلاً، وله مواضع في الكلام، وأما المساواة فهي: أن تكون الألفاظ مساوية للمعاني، ولها أيضًا مواقع في الحوار، وأما الإيجاز فهو اختصار الكلام، أي: ألفاظ الكلام تكون قليلة، والمعاني فيها كثيرة، وهذه الأقسام الثلاثة – الإطناب، والمساواة، والإيجاز – في أدب الحديث النبوي، ومازال موجودًا على الوجه الأتمِّ، حيث قال: «أوتيت جوامع الكلم»[1].

نذكر أمثلةً من المجاز اللغوي والتشبيه والاستعارة، والكناية من جميع أقسامها،

[1] شرح السنة أحاديث فقط: ٨٥٢/١ – ٣٨٨/٦.

في أدب الحديث النبوي، فمثلاً: مرة في جواب السؤال: "أي الأعمال أفضل؟" قال ﷺ: «الصلاة لأول وقتها»[1]. وأجاب مرةً ثانيةً لنفس السؤال: «إيمان بالله ورسوله»[2] وأجاب مرةً ثالثةً: «جهاد في سبيل الله»[3]. وأجاب مرةً رابعةً: «الصبر والسماحة»[4]؛ وكذا في لفظ "الإسلام" سأل سائل: "أي الإسلام أفضل؟" أجاب ﷺ وقال: «من سلم المسلمون من لسان ويده»[5]، وأجاب مرةً ثانيةً: «طيب الكلام، وإطعام الطعام»[6].

وقال العلماء في شرح هذه الأحاديث النبوية: توجد في مثل هذه الأجوبة المختلفة للسؤال الواحد "الرعاية التامّة" لحالة السائل الذي سأل عن أفضل الأعمال عند ختام مجلسه الإصلاحية المباركة وقت الأسئلة، حيث أن الأول فيه شيء من الكسل في أداء الصلاة، فكان الجواب مطابقًا لحاله تمامًا، والسائل الثاني كان يوجد فيه شيئًا من حب النفس وشيئًا من حب المال، أرشده إلى الجهاد، لأنهما – حب النفس وحب المال – قد يؤدِّيان إلى الجبن، فأصلح له على تلك الحالة، هناك رجل يعامل معاملات قانونية مع الناس، ويحاسب مع عمّاله بالشدة، وليس عنده شيء من الرحمة والرأفة، وكان يفتش الجزئيات التي لا اعتبار لها في العرف، فقال له: «الصبر، والسماحة» أي: عليك الصبر على بعض العمّال، والعفو عن البعض؛ لأن البر حسن الخلق!! وجد في الرجل قلة الضيافة الإكرامية، وكان لا يخالط مع الناس طلقًا وجهًا! وقال في حقِّه: «طيب الكلام، وإطعام الطعام» هذه هي البلاغة النبوية، وهي من

---

[1] أخرجه الترمذي في الجامع، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الوقت الأول من الفضل، برقم: ١٥٥.

[2] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، برقم: ١٤٢٢.

[3] نفس المرجع.

[4] أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، كتاب الإيمان والرؤيا، برقم: ٣١٠٣٢.

[5] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الإيمان، باب أي الإسلام أفضل؟ برقم: ١٠، ومسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، برقم: ٥٩.

[6] أخرجه أحمد بن حنبل في المسند، برقم: ١٩٤٥٤.

الأحاديث الأدبية، وقال العلماء – أيضاً –: الاختلاف في الأجوبة يتعلق – أحياناً – بالأوقات المخصوصة؛ فيكون الجهاد فرضًا عند نفير العام من إمام الوقت – بعد بيعة الجهاد على يده – وكذا الإنفاق عند حاجته، وكذا الأعمال الصالحة الأخرى والأعمال الخيرية عند الحاجة إليها، نظرًا إلى اختلاف الأوقات، وهذا الأسلوب البلاغي يكون باقيًا إلى يوم القيامة، وكان معالجًا عظيمًا يعالج الناس بغاية الحكمة عن طرق شتّى، هذه هي الخصائص الفنية.

ثانياً: الفنون البلاغية في أدب الحديث النبوي:

التشبيهات لها مكانة عظيمة في علم البلاغة، ولها أقسام كثيرة، وأنواع متعدِّدة، والأحاديث النبوية مليئة بها، ومن هذا التشبه مجاز وله أيضًا أقسام كثيرة، ومن التشبيه أيضاً استعارات بأقسامها الثلاثة، وهذه الأقسام كلها: التشبيه، والمجاز، والاستعارة، توجد في أدب الحديث النبي ﷺ. وهذه بعض أمثلة منها، أعرضها فيما يلي:

١ – **التشبيه:**

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك بين أصابعه»[١].

"المؤمن للمؤمن" مشبه.

"كاف" حرف تشبه.

"البنيان" مشبه به.

"يشد بعضه بعضًا" وجه الشبه.

"وشبك بين أصابعه" توضيح التشبيه – المزيد – أي: الاتحاد والاتفاق.

«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٢].

---

[١] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم، برقم: ٢٢٦٦.

[٢] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الزهد والرقاق، باب، برقم: ٥٢٥٦، والترمذي في الجامع، كتاب الزهد، باب ما جاء أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، برقم: ٢٢٤٦، وابن ماجه في السنن، كتاب الزهد، باب مثل الدنيا، برقم: ٤١٠٣.

"الدنيا" مشبه.

"والكاف" حرف تشبيه محذوف.

"سجن" مشبه به.

"والكافر" مشبه.

"والكاف" حرف تشبيه محذوف.

"جنة" مشبه به.

"الحرية" وجه الشبه.

وهذا الحديث يشمل على تشبيهين مختلفين:

الأول: تشبيه المؤمن بالأسير الذي يسكن في السجن، وله قواعد وضوابط في الأكل والشرب، والنوم، والعمل، وغيرها، وحياته مشروطة في السجن – كحياة الأسير في السجن، للأسير قواعد، وكذا القواعد في حياة المؤمن؛ حيث له حدود في الحلال والحرام، وله شروط في حياته، في الأكل والشرب، والأخذ والرد، وأما حياة الكافر فهي تكون حرة، ولها حرية كاملة، لا قيود في حياته، ولا شروط فيها – كما تكون الحرة للمؤمن في الجنة، حيث يأكل بما يشتهي، وينام كيف يريد؟ وأين يريد؟ كما قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: ٣١]، قدّم الحديث الشريف صورتين مختلفتين: للحرية الكاملة والحياة مع القيود والشروط، بأن تكون الأعمال لدى المؤمن كلها تحت الشريعة وعلى طريقة المحمدية وعند الكافر تكون حرة كاملة وأنه يقضي حياته كالبهائم ويأكل كما تأكل الأنعام.

١) إن مثل ما بعثني الله به ﷻ من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً.

٢) فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير.

٣) وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا

وزرعوا.

٤) وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ.

٥) فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه بما بعثني الله به فعلم وعلَّم.

٦) ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به [١].

وفي هذا الحديث النبوي البلاغي تشبيهات متعدِّدة، فيوجد المشبه والمشبه به بالكثرة، فشبه العلم بالغيث؛ لأنه – العلم – يحيى القلب الميت أحياء المطر البلد اليابس.

وفي التعبير بالغيث دون المطر نكتة لطيفة إذ الغيث مطر محتاج إليه يغيث الناس عند قلة المياه، وقد كان الناس متحيرين قبل بعثته ﷺ حتى أغاثهم الله بوابل علومه.

وشبه من ينفع به الأرض الطيبة، والشبه من يحمله ولم ينتفع به الأرض الصلبة الماسكة للماء فينفع به الناس.

وشبه من يحمله ولا ينتفع به بالقيعان:

وحقيقة هذا التشبيه مركب من عدة تشبيهات لأن الأول – المشبه – موقوف على آخره – المشبه به – أنه وصف الغيث بقوله: أصاب أرضا، فعلم أنه تشبيه واحد، وهو تشبيه الوحي النازل من السماء إلى من ظهر نفعه وإلى من لم يظهر بالغيث النازل من السماء إلى الأرض، فآثار المطر تظهر من أقسام ثلاثة حصول النفع وعدمه وكذا الإنسان ينقسم إلى أقسام ثلاثة في حصول النفع وعدمه، والشرح المزيد لهذا الحديث الشريف:

الطائفة الأولى:

---

[١] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الفضائل، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم، برقم: ٤٢٣٢.

طائفة[1] طيبة، قبلت الماء فأنبتت الكلأ[2]، والعشب[3] الكثير مثل من فقه – الفقيه: هو عالم بأحكام الشرعية – فعلم وعلّم، أي: درس، ودرَّس، واشتغل بالعلوم الشرعية، فنفعه الله بما بعثني به، هذه الطائفة صارت سببًا لنفع الناس، كما تنفع الناس بالمطر النازل من السماء، والناس ينتفعون من العلم والهدى، كما ينتفعون بالمطر.

والطائفة الثانية:

وكان منها – من الأرض – أجادب[4] أمسكت الماء فانتفع بها الناس – أيضاً – بسبب إمساك الماء شربوا، وكانوا عطاشى، وسقوا البهائم ودوابّهم، ثم زرعوا الأرض من بقية الماء التي أمسكت الأرض، هذه القطعة من الأرض – أجدب – أيضا ينتفع الناس بها في حوائجهم المختلفة اللازمة لحياة الإنسان، مثلاً: الشرب، الغسل، والزراعة، وغيرها –.

الطائفة الثالثة:

وأصاب المطر إلى طائفة أخرى، منها، أي: قطعة من تلك الأرض التي أصابها المطر، وهي لا تمسك ماءً كالقطعة الثانية، ولا ينبت الكلأ والعشب، كالقطعة الأولى؛ بل هي قيعان[5]، فليست الفائدة بإنزال المطر عليها، وهكذا لا ينتفعون كثيرًا من الناس، بما بعثني الله بالعلم والهدى، والمراد به المسلمون.

٢ – المجاز:

المجاز من جاوز، يجاوز، مجاوزة، أي: تجاوز الشيء من مكانه، أي: من محله الأصلي، وأما ههنا يجاوز اللفظ من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي، أي: استعمال اللفظ في غير

---

[1] الطائفة: قطعة من الأرض.

[2] الكلأ: المرعى، قيل: الكلأ مختص بالرطب، وقيل: الكلأ: الحشيش.

[3] العشب: اسم للنبات، نبتت بنفسها.

[4] أجادب: جمع أجدب، وهي الأرض التي لا تنبت – الكلأ والعشب –.

[5] قيعان: جمع قاع، وهي الأرض المستوية لا تمسك الماء ولا تنبت فيها الكلأ.

ما وضع له لعلاقة بينهما وهناك علاقات كثيرة بين الحقيقة والمجاز، عدَّها بعض العلماء تلك العلاقات بينهما؛ فقد وصلوا إلى أكثر من عشرين علاقة بينهما[1].

١- «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[2].

هناك تشبيهان:

الأول: الناس معادن:

الناس مشبه.

معادن مشبه به.

والكاف حرف تشبيه محذوف تقديره.

الناس كمعادن، وجه الشبه

إما الخير أو إما الشر

لأن المعدن يشمل الخير والشر

وكذا الإنسان يشمل الخير والشر

والعلاقة بينهما، إما النفع أو إما الضرر.

الناس ليسوا معادنا حقيقة لأنهم أحياء يُرزقون، ويتحركون، والمعدن جماد لا حركة فيه. ولا حياة فيه مثل حياة الإنسان وهو لا يتحرك مثل حركة الإنسان، فتعذر استعمال الحقيقي – المعدن – للإنسان فرجعنا إلى المجاز والعلاقة بينهما النفع والضرر، فمعناه: يظهر بهم الخير كظهور الخير من المعدن، وكذا توجد عند كثير من الناس شر، فيصدر منهم الشر، وهم يفعلون الشر، ويمشون بالشر، والشر مع

---

[1] فعدّ العلامة محمد إبراهيم بلياوي – رحمه الله – ٢٤ قسماً للمجاز في كتابه "ضياء النجوم في شرح سلم العلوم.

[2] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنوده مجندة، برقم: ٦٧٠٩.

وجودهم.

والمعادن يوجد فيها الخير؛ كما يوجد فيها الشر، وعند البعض يوجد الخير، فبعض المعادن يشتمل فيها الجواهر المختلفة، والبعض الأخر يشتمل الأحجار التي لا فائدة فيها و لم توجدت الفائدة البتة.

الثاني: وجه الشبه اشتمال المعدن على الجواهر المختلفة؛ فكل معدن يخرج منه ما فيه من الذهب والفضة والجواهر الأخرى أو يخرج منه الأشياء التي لا فائدة فيه، وكذا كل إنسان يظهر منه ما في أصله من خسة أو شرف أو خلق عال، أو عادة دنيئة، أو أفعال حسنة، أو عادات خبيثة.

٣ – الاستعارة:

الاستعارة ضرب من المجاز اللغوي علاقته المشابهة دائما بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، وهي في حقيقتها تشبيه حذف أحد طرفيه.

وللاستعارة أنواع عديدة أذكر بعضا منها مع إيراد بعض الأمثلة من الأحاديث النبوية – الأدبية – حتى يتجلى أن الأحاديث النبوية لها قيمة أدبية وبلاغية بجانب قيمتها الدينية، فمن أنواع الاستعارة ما يلي:

(أ) الاستعارة التصريحية:

وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه به أو ما استعير فيها لفظ المشبه به للمشبه[١].

مثالها: قوله ﷺ: «لا تستضيئوا بنار المشركين»[٢].

فاستعار "النار" للرأي والمشورة، أي لا تهتدوا برأي المشركين ولا تأخذوا بمشورتهم[٣].

---

[١] علم البيان: للدكتور عبد العزيز عتيق، ص: ١٧٦.

[٢] أخرجه النسائي في السنن، كتاب الزينة، برقم: ٥١١٤.

[٣] علم البيان: للدكتور عبد العزيز عتيق، ص: ١٧٦.

(ب) الاستعارة المكنية:

هي ما حذف فيها المشبه به ورمزله بشيء من لوازمه[1].

مثالها: أن رسول الله ﷺ طلع له "أحد" فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه»[2].

فجبل أحد هذا الجماد قد استحال بسحر الاستعارة إلى إنسان يجيش قلبه بعاطفة الحب وحذف المشبه به الإنسان، فصارت الاستعارة مكنية[3]. يقال لها: الاستعارة بالكناية.

هذان القسمان من أهم أقسام الاستعارة.

(جـــ) الاستعارة التخييلية:

قال: ثلاث من كن فيه وجه بهن حلاوة الإيمان:

١) من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢) وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

٣) وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار[4].

توجد في هذا الحديث النبوي الأدبي استعارة تخييلية في لفظ حلاوة الإيمان المراد من حلاوة الإيمان، هو: استلذاذ الطاعات؛ وتحمل المشاق في الدين، وإيثار ذلك على أغراض الدنيا، ومحبة العبد لله تعالى، تحصل بفعل طاعته، وترك معصيته، وفي هذا الأسلوب وجدت استعارة تخييلية حيث شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو يكون لذيذا في الأكل، ويميل الإنسان إليه طبعًا، ويحبه، أثبت للإيمان لازم

---

[1] البلاغة الواضحة: على الجارم ومصطفى أمين، ص ٧٧.

[2] أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واتخذ الله إبراهيم...﴾، برقم: ٣١١٦.

[3] علم البيان: للدكتور عبد العزيز عتيق، ص: ١٩٩ – ٢٠٠.

[4] أخرجه مسلم في الصحيح، في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، برقم:٦٠.

ذلك – أي الحلو – كما أن الحلو يرغب به الإنسان، وكذا يرغب المؤمن "الإيمان"، فقدم الصورة الحسية، هي الحلو في الشيء بالصورة المعنوية، هي للذة الإيمانية؛ لأنه استلذاذًا بالإيمان شيء معنوي، وهذه هي الاستعارة التخييلية.

كما أن الله تعالى سبحانه شبه الإيمان بالشجرة الطيبة في قوله: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة»[1]، فالكلمة هنا كلمة الإخلاص، والشجرة أصل الإيمان وأغصانها إتباع الأوامر؛ واجتناب النواهي؛ وزهرها ما يهمُّ به المؤمن من الخير وثمرها عمل الطاعات، وحلاوة الثمر جني الشجرة وغاية كما له تناهي نضج الثمرة وبه تظهر حلاوتها.

وفي هذا الحديث الشريف يوجد تشبيه آخر هو يكره الإنسان شبّه بكراهيته الحسية، وهي الكراهية الطبعية – دخول النار – بكراهيته المعنوية، وهي الإعادة إلى الكفر، وأن المؤمن يكره في طيلة حياته دخول الكفر، وكما يكره الإنسان من دخول النار طيلة حياته، هذه هي البلاغة النبوية في أدب الحديث النبوي.

وهناك أقسام أخرى أيضا تتفرع منها، وهي:

(١) الاستعارة الأصلية: هي ما كان فيه اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة اسماً جامداً.

(٢) الاستعارة التبعية: هي ما كان اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة مشتقاً أو فعلاً.

(٣) الاستعارة المرشَّحة: ما ذكر معها ملائم المشبه به.

(٤) الاستعارة المجردة: ما ذكر معها ملائم المشبه.

---

[1] أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، برقم: ٦٠.

(٥) الاستعارة المطلقة: ما خلت من ملائمات المشبه به أو المشبه [١].

الخاتمة:

وهذه هي الخصائص العامة في أدب نبيِّنا العظيم خاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم، وهي الخصائص التي لم توجد في "الأدب" عند أحدهم من الناس في لغاتهم، ولن توجد – أبدًا – عند أحد منهم في لغتهم، لا في العربية فحسب بل في اللغات العالمية الحية كلها.

وأنه نبيٌّ مرسل، وأنه رسول مبلِّغ، وهو البشير، وهو النذير، وهو الهادي والمهدي، وأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣-٤].

فكيف يكون الخلل، والفتور، والعوج واقعًا في أدب حديثه؟ فلم يمكن – فلن يمكن – أن يقع شيء في أدب الحديث النبوي ما يعيبه، لأنه هو الوحي غير المتلو، وهو بلغ إلى غاية السمو.

أهم مصادر البحث:

١) **البلاغة الواضحة:** لعلى الجارم ومصطفى أمين، دار المعارف بمصر.

٢) **البيان والتبيين:** لعمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي– القاهرة، ط٧، ١٩٩٨م.

٣) **تاريخ الأدب العربي:** أحمد حسن الزيات، دار الثقافة – بيروت.

٤) **جامع الأصول من أحاديث الرسول:** للإمام أبي السعادات مجد الدين بن الأثير الجزري، تحقيق: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، دار الفكر – بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٥) **الجمع بين الصحيحين:** لحميدي، دار ابن حزم – بيروت.

٦) **سنن أبي داود:** للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني، دار السلام – الرياض، ط١، ١٤٢٠ هـ.

٧) **سنن ابن ماجه:** للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد الرِّبْعي ابن ماجه القزويني، دار السلام – الرياض، ط١، ١٤٢٠ هـ.

٨) **سنن الترمذي:** للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، دار السلام – الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ.

٩) **سنن النَّسائي:** للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النَّسَائي، ن: دار السلام – الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ.

[١] انظر: البلاغة الواضحة، ص ٨٤ – ٩٣.

١٠) **شرح السنة**: للإمام الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: الشيخ شعيب الأرناؤوط والشيخ زهير الشاوش، المكتب الإسلامي – بيروت، ط٢، ع ١٤٠٣هـ.

١١) **صحيح البخاري**: للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، دار السلام – الرياض، ط٢، ١٤٢١هـ.

١٢) **صحيح مسلم**: للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القُشيري، دار السلام – الرياض، ط١، ١٤١٩هـ.

١٣) **علم البديع**: للدكتور عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية – بيروت، ط١، ١٩٧٤م.

١٤) **علم البيان**: للدكتور عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية – بيروت، ط١، ١٩٨٥م.

١٥) **القول المبين في سيرة سيد المرسلين لمحمد طيب النجار**: دار الندوة الجديدة بيروت – لبنان.

١٦) **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**: للشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني، تحقيق: الشيخ أحمد القلاّش، مكتبة التراث الإسلامي– حلب.

١٧) **كنْز العُمَّال في سنن الأقوال والأفعال**: للشيخ علي بن حسام الدين المتقي الهندي، مؤسسة الرسالة – بيروت.

١٨) **مباحث في علوم القرآن**: للشيخ مناع القطان،، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط٤، ١٩٩٥م.

١٩) **المسند**: للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشَّيْبَاني، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط ١، ١٤١١هـ.

٢٠) **مصنَّف ابن أبي شيبة**: للإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، تحقيق: الأستاذ كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد – الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

٢١) **المعجم الأوسط**: للإمام أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: الدكتور محمود الطحان، مكتبة المعارف – الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ.